@Tafsircenter

مركزية المقاصد القرآنية عند محمد الغزالي

مقاربة في المفهوم والمصطلح والضرورة

أ.د. محمد زرمان

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

توطئة:

مقاصد القرآن هي المَحَاوِر الكبرى والقضايا الأساسية التي دارت عليها سُوَرُهُ وآياتُه، والغايات الجامعة التي أنزل لأجلها تحقيقًا لمصالح العباد. واستيعابُها وإدراك كُنهها أمرٌ أساسي في غاية الأهمية؛ لأنه يجمع زبدة الرسالة الخاتمة في كلّيات معيَّنة تُعَدُّ هي مرتكزاتها الرئيسة، ولأنَّ في معرفتها وتحقيقها تحقيقًا للفائدة الكبرى والغاية القصوى للقرآن وعلومه ومباحثه. ومراعاة المقاصد من أوثق ضمانات الصلاحية الحضارية للإسلام، ومن خلالها يمكن للمسلمين استيعاب متغيّرات العصر في إطار مرجعيتهم المقدّسة، ومن ثمَّ التفاعل الإيجابي مع المتغيرات والمستجدات التي تعتري حياة البشر بعامّة والمسلمين بخاصّة.

وقد تناولها العلماء في القديم والحديث وأدلَى كلُّ واحدٍ منهم بدلوه، وخرجوا بنتائج متباينة في تحديد هذه المقاصد وضبطها، وإن كانوا يشتركون في عددٍ منها لكنهم اختلفوا في عددها وترتيبها وفي أسمائها كلٌّ حسب ما انتهى إليه فهمه، واقتنع به عقله، وما خرج به مِن طول تدبّره للقرآن ونظره في معانيه، وما رأى من حاجة المسلمين إليه لاختلاف البيئات والعصور.

ومحمد الغزالي أحدُ هؤلاء العلماء الذين كانت لهم إسهاماتهم القَيِّمة في هذا المجال، وهو مِن أبرز مَنْ حَظِيَ الفكر المقاصدي لديهم بنصيب وافر في إطار

معالجاتهم لأزمة التخلّف الحضاري في العالم الإسلامي. وقد خلص -بعد طول مصاحبته للقرآن الكريم وإدامة النظر في آياته- إلى تأليف كتابَيْهِ: (كيف نتعامل مع القرآن) و(المحاور الخمسة للقرآن الكريم) اللذَيْنِ ضمّنهما الحقائق القرآنية الكبرى التي بسطها القرآنُ للناس لتهديهم إلى صراط الله المستقيم، والتي تتجاوز الفهوم الجزئية والحَرْفية والشكلية للنصّ القرآني لتنظر إليه نظرة كلية شاملة فاحصة تُعيد ربطهم بكتاب ربهم، وتبثّ فيهم الفعالية الحضارية التي افتقدوها عندما ضاعت منهم روح المقاصد.

ولا يختلف الغزالي عن بقية أهل العلم في تحديد مفهوم المقاصد فهي عنده -كما أسلفنا- تلك المَحَاور الكبرى والقضايا الأساسية التي دارت عليها سور القرآن وآياته، والغايات الجامعة التي أُنزل لأجلها تحقيقًا لمصالح العباد، لكنه اختلف عنهم في اختيار المصطلح، حيث أطلق على المقاصد مصطلح (المَحاوِر) الذي رأى أنه يؤدي المعنى المراد أكثر من غيره.

والمتتبع لكتابات الغزالي المختلفة يلحظ بكلّ سهولة مدى اهتمامه بالمقاصد القرآنية الكلية، ولعلّ من أهمّ أسباب بروز الاتجاه المقاصدي عنده فقهه العميق للواقع المُعَاش، وانخراطه في غِمار المجتمع، واطلاعه الواسع على مجريات الأمور في العالم، ومعايشته الصادقة لآلام الأُمّة وآمالها، وإحساسه بجراحها، وتذمُّره من مظاهر تخلفها المزري، وإيمانه اللَّا محدود بكون الإسلام هو الحقّ المبين الذي لا غنى للبشرية عنه. ومِن ثَمّ اكتسبت

فلسفة المقاصد عنده أبعادًا حضارية مهمّة ارتبطت بشكلٍ واضح بمنهج الدعوة والتغيير والبناء الحضاري لإصلاح حال الأُمّة. فمقاصد القرآن عنده مرتبطة أشدّ الارتباط بكيان الأمة أكثر من ارتباطها بالفرد الذي هو محلّ اهتمام مقاصد الشريعة؛ ذلك أنّ: «مقاصد القرآن أعَمّ ومقاصد الشريعة أخَصّ؛ لأن مقاصد الشريعة متعلقة بالفرد الواحد، ودائرة في نطاقه باعتبار فردية التبعة، ومسؤولية التكليف، ولكن الحديث عن مقاصد القرآن متعلق باعتبار الإنسان الخليفة، والإنسان الجماعة، والإنسان الدولة»[(١)]، وهي التي تُحيل إلى بيان شروط الاستخلاف والعمران، وتحقيق الشهود الحضاري للأمة.

أما بالنسبة للدراسات السابقة، فإننا بعد عملية الاستقصاء والبحث عن الدراسات التي عالجت موضوع المقاصد القرآنية عند الغزالي، لم نقف على أيَّة دراسة ذات صلة بهذا الموضوع، سواء على مستوى الكتب والرسائل الجامعية، أم على مستوى الدراسات والأبحاث، على الرغم من أنّ الغزالي حظِيَ بعدد لا بأس به من المؤلّفات والدراسات من طرف العلماء والباحثين وطلبة الدراسات العليا الذين اهتموا بمختلف الجوانب في فكره، إلَّا موضوع المقاصد -حسب اطلاعنا- فلم تُخَصَّص له دراسة مستقلّة تهتم به من جميع جوانبه، باستثناء إشارات قليلة تَرِد في بعض الكتابات هنا وهناك.

(١) مقاصد القرآن في فكر النورسي. الدغامين، زياد خليل محمد. حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية. جامعة قطر. ع ٢١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. ص٣٥٣.

لكننا ينبغي أن نشير إلى أن هناك بعض الكتابات التي تناولت إسهامات الغزالي في علوم القرآن والتفسير الموضوعي والتي تتقاطع مع موضوعنا في بعض القضايا والجزئيات، ومنها على وجه الخصوص أطروحة الباحث: يونس ملال، الموسومة: (منهج الشيخ محمد الغزالي في التعامل مع القرآن)، وهي أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة الجزائر عام ٢٠١٠م، بإشراف: عمار جيدل، وتتكون من مقدمة وستة فصول وخاتمة، تناول صاحبها في فصولها الخمسة حياة الغزالي وموضوع التفسير الموضوعي بكلّ تفصيلاته، وخصّص الفصل السادس لـ(التعامل مع القرآن في ميزان الشيخ الغزالي: الموضوع والمنهج)، وهو الفصل الذي يتقاطع في بعض قضاياه مع دراستنا.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يتتبع مختلف الأفكار والقضايا ذات الصلة بموضوع المقاصد القرآنية عند الغزالي، مع ما يسبق ذلك من تمهيد وتوطئة، وما يتبعه من تحليل واستنتاج ومقارنات لفهم الفكرة الأساسية فهمًا عميقًا، والبحث في الدلالات المختلفة، وما يمكن استنباطه من معانٍ جديدة تخدم القضية المطروحة للدراسة والنقاش، كما اعتمدنا في هذه الدراسة أيضًا المنهج النقدي الذي يقوم على المساءلة والتمحيص والتأكّد من صحة الأفكار المطروحة من خلال الاستئناس بالأدلة والبراهين المنطقية المؤيدة لها.

وتطمح هذه الورقة البحثية إلى تحرير مصطلح المقاصد القرآنية، وإبراز أهميته ومكانته في بناء العقل المسلم وتشكيله، والاستعراض السريع لجهود الأمة في استنباط مقاصد القرآن على مرِّ التاريخ، ثم الوقوف عند مفهوم مقاصد القرآن عند الغزالي، والبحث في مصطلح المحاور الذي اختاره بديلًا عن مصطلح المقاصد، والوقوف عند أهمية المقاصد القرآنية عنده من الناحية الشرعية والحضارية.

أولًا: المقاصد القرآنية؛ قراءة في الأبعاد والدلالات:

المقاصد جمع مقصد، وهو مصدر الفعل قَصَدَ، تقول قصدْتُ الشيء، طلبتُهُ بعينه، وإليه قصدي ومقصدي، مأخوذ من القَصْد وهو الاعتزام والتوجه والنهوض نحو الشيء. قال الزبيدي: «وفي سرّ الصناعة لابن جني: أصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجُّه والنُّهود والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور»[(١)]، والمقصد في اللغة هو استقامة الطريق، والقصد العدل، والقصد في الشيء خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير[(٢)]، والمقصود الغاية التي يريدها المتصرّف، ومقصود الشارع غايته وهدفه، فالمقاصد إذن هي الغايات والأهداف.

وقد ارتبط هذا المصطلح -في أول أمره- بالشريعة الإسلامية، حيث نشأت المقاصد في أحضان أصول الفقه، ضمن باب القياس عند تقسيم العلّة بحسب قصد الشارع، واعتنى الأصوليون بالمقاصد مستندين إلى القاعدة التي تقرِّر أن الشريعة إنما جاءت لتحصيل مصالح العباد في العاجل والآجل، فكلّ مسألة فيها: «خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإنْ أُدخلت فيها

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ج٢، ص٤٦٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ، ج٣، ص٩٦.

بالتأويل»[١]، ثم توسَّع القول فيها إلى أن أصبحت شرطًا يتعيَّن على المجتهد أنْ يُلِمَّ بها كأداة ضرورية من أدوات الاجتهاد، ثم تحوَّلَت إلى علمٍ مستقلٍّ، واضح المعالم تدرّج في النمو والتطوّر عبر سلسلة طويلة من إسهامات العلماء، ثم قفز قفزة نوعية على يد الشاطبي، واستكمل كثيرًا من نقائصه على يد الطاهر بن عاشور.

وفي التأريخ لميلاد فكرة المقاصد لا يتردد كثيرٌ من الدارسين في التأكيد على أنها كانت موجودة بروحها عند الصحابة رضي الله عنهم؛ إِذْ كانوا أول الملتفتين لمقاصد الشرع وحكمة الله فيه، وكان فقههم فقهًا مقاصديًّا يُولي بالغ عنايته لحِكَم الشريعة وعللها، ويبني اجتهاداته على قاعدة أنّ لكلّ أمر ونهي مغزًى يُعقل على الجملة وإن لم يُفهم على التفصيل[٢]، ثم عند مَن جاء بعدهم من التابعين والعلماء، وانتقلت الفكرة عبر الأجيال: «فمقاصد الشريعة ومعرفتها ومراعاتها ليست شيئًا اكتشفه اللاحقون أو ابتكره المتأخِّرون، بل هو من صميم الدِّين من أول يوم ومن أول فهم»[٣].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر. بيروت، دار الجيل، ج٣، ص٣.

(٢) الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم، المنتار، محمد. المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، ٢٠١٣م، ص٤.

(٣) البحث في مقاصد الشريعة؛ نشأته وتطوره ومستقبله، الريسوني، أحمد. ندوة مقاصد الشريعة عند المذاهب الإسلامية، لندن، ٢٠٠٥م، ص٢-٣.

وقد نبّه الشاطبي لذلك عند تأليفه لكتابه (الموافقات)، وأكَّد أن ما تضمّنه كتابه ليس بدعًا في الدِّين، بل هو من صميم ما أقرّه الأوائل: «فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض، وعَمِي عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغرَّ الظانَّ أنه شيء ما سُمِعَ بمثله، ولا أُلِّفَ في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نُسِجَ على منواله أو شُكِّل بشكله، وحسبكَ من شرٍّ سماعه، ومن كلّ بدعٍ في الشريعة ابتداعه؛ فلا تلتفت إلى الإشكال دون اختبار، ولا تَرْمِ بمظنة الفائدة على غير اعتبار، فإنه -بحمد الله- أمرٌ قررته الآيات والأخبار، وشدَّ معاقده السلف الأخيار، ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشيَّد أركانه أنظار النظّار، وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه، والاعتبار بصحة ما أبداه والإقرار»[(١)].

ومنذ عهد النبوة تضافرت جهود العلماء المسلمين على استنباط مقاصد الشريعة وإبراز الغاية منها، واستخلاص الحِكَم من أحكامها، وإثبات معاني العدل والرحمة والحكمة والمصلحة التي تتضمنها. وقد تواترت هذه الجهود المباركة: «في تسلسل عجيب، جعل بعضها يدخل في بعض، حتى اجتمعَتْ حِكَمها في الكليات الخمس المشهورة، وهي: حفظ الدِّين، والنفس، والعقل،

(١) الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، القاهرة: دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٥.

والعرض، والمال. ثم رتّبوا هذه الكليات الخمس حسب الأهمية، بحيث تُقَدَّم المصلحة الأهم عند تعارضها، فيُضَحَّى بالمال لحفظ العرض وكلّ ما قِبَلَه، ويضَحَّى بالنفس لحفظ الدِّين، ولا يجوز أن يُضَحَّى بالدِّين لحفظ المال»[(١)].

ومِنْ أشهر مَنْ أسهم في إثراء هذا العلم إمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي، والرازي، والسيوطي، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور، وحسن البنا، وعلال الفاسي، وغيرهم. لكن يتميز من بينهم جميعًا الجويني والشاطبي وابن عاشور؛ لكونهم من أصحاب: «الطرح الكلي والتأصيل النظري والتطبيقي وصولًا إلى القول بإنشاء علم مستقلّ عن علم أصول الفقه اسمه علم مقاصد الشريعة»[(٢)].

أما المقاصد القرآنية فهي الكليات الكبرى التي ضمّنها الله -سبحانه وتعالى- كتابه الكريم، وهي الأصل؛ إِذْ إن مقاصد الشريعة تُسْتَمد منها. وهو مصطلح حديث لعلمٍ تبلور عبر القرون، وتراكمت معارفه في شكلِ إسهامات متتالية سجّلت على مرّ العصور ما جادت به قرائح العلماء المسلمين من طول نظرهم في نصوصه وتدبرهم لآياته، ورصدهم لترابط موضوعاته وتناسق سوره

(١) القرآن إعجاز تشريعي متجدد، الزين، محمود أحمد. دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص٣٥.

(٢) الوظيفة المقاصدية: مشروعيتها وغاياتها، الخطيب، معتز. مجلة إسلامية المعرفة. السنة ١٢. عدد ٤٨. ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص١٢.

وآياته في وحدة جامعة: «وقد كان الدرس شاقًّا، والعمل دؤوبًا، لم يخلُ منه عصر، بل يكاد ألا ينحاش عنه دارس... وكلّ امرئ يرمي بسهم من كنانته فتصيب من الهدف ما يستطيع، وكلّ ناظر يكثر التأمّل على النحو الذي يفتح الله به عليه»[(١)].

ولا يزال إلى يومنا هذا ينمو ويتطوّر وتتشكّل معالمه بفضل الجهود المبذولة في إنضاجه؛ لذلك لم يحظَ هذا العلم بتعريف جامع مانع لأنه لا يزال في إطار التشكُّل، وما زالت الجهود تتكتّل حوله، وتضيف إليه كلّ يوم جديدًا، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض التعريفات التي تشير إلى معالمه الكبرى وخطوطه العريضة كتعريف بعض الدارسين للمقاصد بأنها: «القضايا الأساسية والمحاور الكبرى التي دارت عليها سور القرآن وآياته، تعريفًا برسالة الإسلام، وتحقيقًا لمنهجه في هداية البشر»[(٢)]. وعرفها محمد المنتار بقوله: «مقاصد القرآن هي مجموع المعاني والحِكَم والغايات العليا المنثورة في ثنايا السور والآيات والفواصل والأجزاء والأحزاب القرآنية، والتي تشكّل مراد الله -عزّ وجلّ- من

(١) مقاصد القرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور، مفتاح، هيا ثامر، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، عدد ٢٩، ٢٠١١م، ص٢٤.

(٢) جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن الكريم، بودوخة، مسعود. المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، فاس، المغرب، (جمادى الأولى ١٤٣٢هـ-أبريل ٢٠١١م)، ص٩٨٠.

إنزاله القرآن الكريم على المكلَّفين في الدّارين»[(١)]، وبيَّن الشاطبي أهميتها في قوله: «فمَن فَهِم مراد الله -تعالى- من كلامه لم يتجرأ عليه بالتحايل تبديلًا وتغييرًا، وكذلك مَن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المقاصد، فإنه يكون قد قصَّر في فهم مراد الله، وكذا ما ابتدعه المُشَبِّهة والمُعَطِّلَة في آيات الصفات، يعود إلى هذا الخلل في فهم مقاصد القرآن، ومراد الله من خطابه»[(٢)].

ونظرًا لخضوع هذه المقاصد في جانبٍ كبيرٍ منها لزاوية الرؤية التي تغلب على صاحبها؛ فقد اختلف العلماء في تحديدها، وضبط عددها، وترتيبها حسب أهميتها، واجتهد كلُّ واحد في رصد ما يراه غالبًا ومهيمنًا على الخطاب القرآني ليضعه في خانة المقاصد الكلية، وإن كانوا يلتقون في كثير من هذه الكليات التي تبدو بارزة في ثنايا الآيات الكريمة ولا تخفى على أحد كالتوحيد مثلًا.

فأبو حامد الغزالي يذهب إلى أنّ مقاصد القرآن ونفائسه ترجع إلى ستة أقسام: ثلاثة منها أصول مهمّة، وثلاثة توابع مُتِمَّة، فالأصول هي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه، وأما الثلاثة المتمّة فهي: تعريف أحوال

(١) الإدراك المقاصدي محدّد من محددات تدبر القرآن الكريم. المنتار، محمد. المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، ٢٠١٣م، ص٧.

(٢) الاعتصام. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. القاهرة: مكتبة التوحيد. ج٢. ص٢٤.

المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وحكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحقّ، وتعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد[١]. أما العزّ بن عبد السلام فلم يحدد ماهية هذه المقاصد وإنما عبّر عنها بصيغة عامّة: «ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها... ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسُّنة، لعلمنا أن الله أمر بكلّ خيرٍ دِقَّه وجِلَّه، وزجر عن كلّ شرٍّ دِقّه وجِلّه»[٢]. وجمعها بديع الزمان النورسي في أربع كليات: «الحقائق التي نزل القرآن من أجل إثباتها، وعناصره المبدئية الكبرى، وهي: التوحيد والنبوّة والحشر والعدالة»[٣]، وذهب محمد رشيد رضا إلى أنها عشرة مقاصد، وهي: بيان أركان الدِّين من توحيد وبعث وجزاء وعمل صالح، بيان شؤون النبوة والرسالة ووظائف الرسل، بيان أنّ الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل والفكر، والعلم والحكمة والحرية، بيان الإصلاح الإنساني والاجتماعي والسياسي والوطني، بيان مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية، بيان

(١) جواهر القرآن. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ١٩٨١م. ص٩.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ج١، ص١٠.

(٣) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النورسي، بديع الزمان سعيد. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: دار سوزلر، ١٩٩٤م، ج٥، ص٢٣.

حكم الإسلام السياسي الدولي، بيان الإصلاح المالي، إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها، إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية، وبيان هداية الإسلام في تحرير الرقيق[(١)].

أما محمد الطاهر بن عاشور فقد حصرها في ثمانية مقاصد، هي: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، تهذيب الأخلاق، التشريع وهو الأحكام خاصّة وعامّة، سياسة الأمة، القصص وأخبار الأمم، التعليم بما يناسب حال المخاطبين، المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الإعجاز بالقرآن. ورأى القرضاوي أنها سبعة مقاصد، أجملها في: تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء، تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، توجيه البشر إلى حسن عبادة الله -تعالى- وتقواه، الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة، بناء الأُمّة الشهيدة على البشرية، الدعوة إلى عالم إنساني متعاون[(٢)]، واختزلها محمود شلتوت في ثلاثة مقاصد، فقال: «إنّ مقاصد القرآن تدور حول نواحٍ ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام. فالعقائد تطهِّر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية، والأخلاق تهذِّب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة،

(١) الوحي المحمدي. رضا، محمد رشيد. الجزائر: دار الكتب، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص١٦٨-٣٤٠.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن الكريم. القرضاوي، يوسف. جامعة قطر: مركز بحوث السنة والسيرة. ١٩٩٦م. ص٦٥.

وتقوِّي عُرَى التآخي والتعاون بين بني الإنسان، أما الأحكام فهي ما بيَّنه اللهُ في كتابه، أو بيَّن أصوله من النظم التي يجب اتباعها في تنظيم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان»[(١)]، وكذلك فعل طه جابر العلواني الذي اختصرها في ثلاثة مقاصد سماها المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، وهي: التوحيد والتزكية والإعمار؛ فالتوحيد لُبّ العبادة وأسّها، والتزكية هدفها ومقصدها، وغايتها والعمران مرآة التوحيد وثمرة التزكية[(٢)]. وجعلها وصفي عاشور أبو زيد أربعة، هي: الهداية، إخراج الناس من الظلمات إلى النور، سعادة الناس، إعزاز الأُمّة.

والملاحظ أن هناك تباينًا واضحًا في تحديد المقاصد القرآنية بين القُدامى والمحدَثِين، يتمثّل في أنّ القدامى تدور أغلب المقاصد التي استنبطوها حول الفرد المكلَّف من حيث ما يجب عليه من معرفة الله تعالى، وما يترتب على هذه المعرفة من استقامة في تصوره وسلوكه بما يحقّق له سموّه وكماله الإنساني من خلال ضبط علاقته بخالقه في حدود ما نزل به وحيه، بينما أضاف المحدَثُون إلى هذا الأصل مقاصد أخرى فرَضتها مستجدّات العصر وطبيعة التغيّرات الجذرية التي طرأت عليه والمتعلقة بعمارة الأرض، وسياسة الأُمة، والتأسيس لحقوق الإنسان ومنها قضية المرأة، كما هو الحال عند محمد رشيد رضا

(١) إلى القرآن الكريم. شلتوت، محمود. بيروت: دار الشروق. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ص٦.

(٢) جدلية العلاقة بين مقاصد القرآن وتفسيره، قنبر، سهاد. موقع ملتقى أهل التفسير. ١٥/ ٠١/ ٢٠١٧م. http://vb.tafsir.net/tafsir27010/#.WG-St32OqM

والقرضاوي، وتأهيل الأُمة للشهود الحضاري وتشجيع الانفتاح على العالم وغيرها.

فقد أدرك المحدَثُون أنّ: «كلّ ما ورد في القرآن الكريم من الألفاظ والمعاني لم يأتِ عبثًا ولم يقتصر على ترشيد حياة الفرد الإنساني وصلاحه في الدنيا وحسن مصيره في الآخرة وحسب، وإنما كان بالإضافة إلى ذلك يعالج قضايا الحرية والعدل في حياة المجتمع والأُمّة، ويستهدف بناء الحضارة والعمران وحفظ نظام العالم»[(١)]، وقد اتضح هذا التوجّه بصورة جليّة في أدبيات زعماء الإصلاح ورواد النهضة الذين نبّهوا في مؤلفاتهم إلى هذا البُعد الحضاري والعمراني في مقاصد القرآن الكريم.

وقد عرَف العصرُ الحديث صحوةً مقاصدية أو انفجارًا مقاصديًّا ملحوظًا نتج عن الوعي العميق بالأهمية البالغة لهذا العلم بعد أن وجدت الأمة نفسها ضحية لأفكار كثيرة حجبت عنها حقائق الإسلام الكبرى، وظلّت تجترُّها عبر القرون حتى أوقعتها في مهاوي السلبية، والنظرة القاصرة، وأصبحت مراجعتها والتخلص من آثارها ضرورة ملحّة، بالإضافة إلى ما يتعرض له المسلمون من التحديات الكبيرة التي تهدِّد خصوصيتهم الحضارية، وما فتئت تضغط عليهم

(١) مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران، هيئة التحرير، مجلة إسلامية المعرفة. س٢٣. ع ٨٩. صيف ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م. ص٥.

من: «اشتداد الشبهات والمطاعن، وبلوغ التراجع الحضاري أَوْجَهُ، وضغط النظام العالمي تشريعيًّا»[(١)].

وتكتسب المقاصد أهميتها من كونها مجالًا علميًّا غنيًّا وواعدًا، يتيح للعلماء فرصة ثمينة لمباشرة قراءة متجدّدة لنصوص الوحي، تتّفق مع الأطروحة الإسلامية الحديثة القائمة على أنّ الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان، وقادر على تكوين الأنساق الثقافية والحضارية التي تنسجم مع مستجدات العصر، وتطور الحياة. كما يفتح لهم أيضًا الباب لامتلاك آليات جديدة للاجتهاد الفقهي وتنزيل متجدّد للأحكام على الوقائع، والتأسيس لنهضة الأمة على قاعدة متينة مستندة إلى الوحي: «بحيث يكون القرآن الكريم ومقاصده ومفاهيمه الأساسية المُحْكَمَة هي الحَكَم في قبول ما سوى القرآن الكريم من النصوص والاجتهادات والتأويلات، ونسدُّ بذلك -على أساس من روح الشريعة- كلّ باب يتأَتَّى منه الخلط والتشويه، والانحراف عن مقاصد القرآن الكريم ورؤيته الكونية، ويكون مشجبًا للخرافة والشعوذة والتلوث الفكري والثقافي»[(٢)].

(١) جدلية العلاقة بين مقاصد القرآن وتفسيره، قنبر، سهاد. موقع ملتقى أهل التفسير، ١٥/ ٠١/ ٢٠١٧م.

(٢) حوارات منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف، أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. مجلة إسلامية المعرفة، السنة ١٠، عدد ٣٩، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ٢٥١- ٢٥٢.

هذا بالإضافة إلى ما تضفيه مراعاة المقاصد القرآنية على تفسير النصّ القرآني من حيوية وفعالية؛ فبمقدار معرفة المفسِّر بالمقاصد يكون إدراكه للغايات الكبرى من الخلق والوجود، وتنزيله لآياته على الواقع المُعَاش، واستنباطه للهدي المنهاجي الكامن فيها، كما أنها تعصمه: «من شطط التأويل، وزيغ الفهم، وانسداد الأفق؛ ولذلك جاء النعي على أقوام أَعرضوا عن التدبر، فإذا هم في غفلة عن الأسرار وشُغلٍ عن المقاصد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]»[(١)]. ولعلّ ذلك ما حدَا ببعض الدارسين إلى اعتباره أطروحة بديلة قد تسهم في حلّ الأزمة المعرفية التي تعيشها منهجية الاجتهاد الأصولي الحديثة: «إنّ المقاصد القرآنية العليا الحاكمة سوف تُخرج الفقيه من دائرة النظر الجزئيّ إلى دائرة النظر الكليّ والفقه الأكبر، وذلك يعطيها من المرونة والسّعة ما يجعلها قادرة على استيعاب أيّة مستجدات، وتحقيق مصالح البشرية، وسدّ الذرائع بوجه المفاسد التي ترزخ كثير من الشعوب تحتها وتبرز خصائص الشريعة القرآنية، وتؤصل لفقه قرآنيّ نبويّ سليم يستوعب مشكلات الأقليّات والأكثريات معًا بإذن الله»[(٢)].

(١) الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم، المنتار، محمد. المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، ٢٠١٣م، ص٢.

(٢) مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين، العلواني، زينب. فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٤٦.

ثانيًا: المقاصد القرآنية عند الغزالي؛ المفهوم والمصطلح:

١ - مفهوم المقاصد القرآنية عند الغزالي:

محمد الغزالي واحدٌ من العلماء الذين خاضوا تجربة الإصلاح والتجديد الحضاري على نطاق واسع في عصرنا الحديث، وغاصوا في خبايا الواقع الإسلامي البائس، وقرؤوا بوَعْي وعُمْق مسيرة الأمة التاريخية، ورصدوا انتصاراتها وانتكاساتها، وحاولوا -بمعايشة مستمرة للقرآن الكريم، ونظرة نقدية ثاقبة- تحليل عوامل سقوطها الحضاري ووقوعها فريسة سهلة بين أيدي أعدائها، وشخَّصوا أمراضها، واجتهدوا في بيان مواطن الخلل التي أَوْدَت بالأُمة في مهاوي الضعف والهوان والمغلوبية والاستلاب الحضاري.

وقد انتهى في كثيرٍ من دراساته وأبحاثه وتأملاته إلى أنّ الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة التي أنهكتها وجعلت شعوبها قطيعًا من التابعين الأذلَّاء، إنما جاءتها من الانحراف الذي حصل في مناهج تعاملها مع القرآن والسُّنة، حيث غلبَتْ على أنماط تفكيرها بعد العهد الراشدي النظرةُ التجزيئية للإسلام، وفَصْل بعضه عن بعض، والاهتمام ببعض قضاياه وتضخيمها في مقابل إهمال قضايا أخرى في غاية الأهمية لتحقيق ارتقاء الأمة واستحقاقها مرتبة الشهادة على الناس. وهو يرى أنّ علّة النظرة القاصرة قد جَنَت على الأمة ولم يتداركها أحدٌ حتى استفحلت وأَوْدت بها، وأنّ سقوطها الحضاري قد أظهر كلّ مساوئ

هذه المناهج في التعامل مع القرآن والسُّنة وكشف عن عوارها، وأحدث اختلالًا في حركة الأُمة أعجزتها عن السَّيْر، ثم شلَّت حركتها.

وهو يعتقد أنّ المخرج من هذا الواقع البائس يستدعي تصحيح هذا الانحراف، وتجاوز النظرات الجزئية المبتسرة والقراءات الحَرْفِيّة التي تشوِّه الصورة الكلية للإسلام، والتعامل مع القرآن الكريم ككيان حيّ نابض لا ينفصل فيه عضو عن عضو، ومراعاة ترابط معانيه وتكاملها وتساوقها في خطّ واحد بحيث يُفضي بعضها إلى بعض، وتلتقي جميعًا عند جملة من الحقائق التي تعبر بصدق عن جوهره وتجيب عن جميع تساؤلات الواقع، وهي التي اصطُلِح على تسميتها بالمقاصد، وأطلق عليها الغزالي جملة من المصطلحات التي تحمل عنده المعاني نفسها.

وقبل أن نعرض لهذه المصطلحات التي وظّفها الغزالي في التعبير عن المقاصد الكلية للقرآن، نحاول أن نتلمس جهوده في تحديد مفهوم هذا العلم. فبعد مراجعتنا لبعض كُتُبِ الغزالي استقصاءً لمفهومٍ جليٍّ وواضح لمقاصد القرآن عنده، لم نستطع أن نهتدي إلى تعريف دقيق لهذا المصطلح، على الرغم من أنه تحدّث عنه ووظَّفه كثيرًا وبخاصة في كتبه: كيف نتعامل مع القرآن، والمحاور الخمسة للقرآن، وقضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، وغيرها من كتُبه الأخرى، لكننا من خلال قراءاتنا لكتاباته المختلفة نستطيع بكلّ سهولة أن نتلمس مفهومًا واضحًا لهذا المصطلح؛ فالمقاصد عنده تعني تلك المحاور

الكبرى والخطوط العريضة والغايات الأساسية والقضايا الجوهرية والكليات العامّة التي تناولها القرآن بالبيان والتوضيح، وعلى هذا الأساس فهي عنده خمسة مقاصد، هي: الله الواحد، الكون الدّال على خالقه، القصص القرآني، البعث والجزاء، التربية والتشريع.

ويبدو مفهوم الغزالي للمقاصد شاملًا، يتضمّن مبحث التوحيد الذي يتّفق عليه جميع العلماء الذين خاضوا في موضوع المقاصد، ومبحث الكون الدّال على خالقه، ومبحث القصص القرآني، ومبحث البعث والجزاء، ومبحث التربية والتشريع. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّ مما يؤخذ على الغزالي هو جَعْله دلالة الكون على الخالق مقصدًا مستقلًّا، وكان الأَوْلى به أن يضمّه إلى المقصد الأول: «المتعلّق بالله الواحد، إِذْ إِنّ ما في الكون من آيات وآلاء دلائل على الخالق»[(١)]، لكننا بعد قراءتنا للمقصد وتتبعنا لما كتبه الغزالي فيه وجدنا أن مضمونه يختلف اختلافًا كليًّا عن مقصد التوحيد الأول، فهو يتضمن دعوة لاستكشاف سنن الكون وتسخيرها في بناء الحضارة والتأسيس للعمران البشري، ويهاجم فيها أنواع الانحراف والتديّن المغشوش الذي أبعد المسلمين عن هذه المهمّة الحضارية الراقية ورماهم على هامش التاريخ.

(١) جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن الكريم، بودوخة، مسعود. مرجع سابق، ص٩٧٤.

والملاحظ أنّ حصر مقاصد القرآن في خمسة مَحاور جاء وسطًا بين مَنْ جعلها تصل إلى عشرة مقاصد كما هو الحال عند محمد رشيد رضا، أو إلى ثمانية كما هو الحال عند محمد الطاهر بن عاشور، أو سبعة عند يوسف القرضاوي، أو ستة عند أبي حامد الغزالي، أو أربعة عند بديع الزمان النورسي وأحمد الريسوني ووصفي أبو زيد، وبين من اختصرها اختصارًا شديدًا وحصرها في ثلاثة مقاصد كما هو الحال عند محمود شلتوت وعبد العظيم الزرقاني وطه جابر العلواني وغيرهم. وهو يتّفق في ذلك مع وليّ الله الدهلوي الذي ذهب إلى أن مقاصد القرآن خمسة[(١)]، لكنهما يختلفان في تحديد هذه المقاصد.

كما أنه لم يقسم هذه المقاصد إلى أوّلية وثانوية، أو أساسية وفرعية كما فعل بعض العلماء، بل كانت نظرته أكثر وضوحًا واتزانًا، ويلاحظ أيضًا أنه يشترك في اعتبار القصص القرآني مقصدًا مستقلًّا مع محمد الطاهر بن عاشور ومحمد الصالح الصديق. وبناء على ما سبق، فقد أصّل الغزالي لهذا المفهوم في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن)، واجتهد في تطبيق هذه التصوّرات في كتابه: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم).

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير، الدهلوي، شاه وليّ الله أحمد بن عبد الحليم. تعريب: سليمان الندوي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص١٩.

٢- مصطلحات المقاصد عند الغزالي:

من خلال استقرائنا لكتابات الغزالي لاحظنا أنه لا يكتفي باستخدام مصطلح مقاصد القرآن كما هو الحال عند أغلب العلماء الذين صنفوا في هذا الباب، وإنما يستخدم مجموعة من المصطلحات الأخرى سنحاول أن نتوقف عند أهمها، وهي كالآتي:

أ- مصطلح المحاور:

وظَّف الغزالي هذا المصطلح في عنونة كتابه: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) وأطلقه على بقية فصول الكتاب بصيغة المفرد: المحور الأول، المحور الثاني...، وورد أيضًا في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن) في صفحات عديدة[(١)]. والمحور في مفهوم الغزالي هو القضايا المركزية والموضوعات الرئيسة والمسائل الجوهرية والكليات الكبرى التي يتمحور حولها القرآن الكريم. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ الغزالي فَضَّل إطلاق هذا المصطلح على كتابه (المحاور الخمسة للقرآن الكريم)؛ ليُحيل إلى الأبعاد والغايات الكبرى التي هي مدار كتاب الله، متجاوزًا بذلك مصطلح المقاصد الذي يكاد يكون مهيمنًا على معظم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، محمد. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، ٢٠٠٥م، ص٤٢، ٤٦، ٦٢، ٨٦.

غير أنّ طه جابر العلواني يرى أن مصطلح المقاصد أبلغ في التعبير عن الغاية من هذا العلم من مصطلح المحاور الذي يدلّ على الموضوعات الأساسية التي دارت آيات الخطاب القرآني حولها، أما المقاصد عنده فهي التي تمثل غايات القرآن الأساسية التي لا يمكن الإخلال بها[(١)]، في حين يذهب بعض الدارسين إلى أنّ مصطلح المحاور هو أدقّ الألفاظ في بيان المراد، وهذا هو الرأي الذي نميل إليه؛ حيث اختاره سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) الذي اعتنى فيه أشدّ العناية ببيان مقاصد القرآن من خلال الكشف عن المحور الذي تدور عليه كلّ سورة من سوره. فهو يقسّم السورة إلى مقاطع، ويبيِّن صلة كلّ مقطع بموضوع السورة الأساسي الذي يسمِّيه محورًا. وقد تكرّر مصطلح المحور في كلّ مرة يعرض فيها لسورة جديدة على امتداد التفسير، ففي تفسيره لسورة النور -مثلًا- يقول: «والمحور الذي تدور عليه السورة كلّها هو محور التربية التي تشتدُّ في وسائلها إلى درجة الحلول، وترقُّ إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة»[(٢)].

(١) ينظر: مقاصد القرآن الكريم في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين. ماهر حسين حصوة. مجلة إسلامية المعرفة. س٢٣. ع ٨٩. صيف ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م. ص١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن. قطب، سيد. بيروت: دار الشروق. ط٧. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. ج٤. ص٢٤٨٦.

ب- مصطلح المقاصد:

على الرغم من الشهرة التي اكتسبها هذا المصطلح حتى كاد يكون علَمًا على هذا العِلْم، إلا أنه يأتي عند الغزالي في مرتبة ثانية؛ ربما لأنه استشعر أنّ مصطلح المحور أعمق وأكثر دلالة على الغرض من المقصد لما بينهما من فرق في المعنى، فليس المحور في دلالته على أنه مدار الشيء ومركزه كالمقصد في دلالته على أنه الغاية والهدف. وهذا لا يعني أنه يقلّل من قيمة هذا المصطلح، فهو مبثوث في كتاباته، ومنها على وجه الخصوص كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن)[١].

ج- مصطلح الأبعاد:

والمصطلح الثالث الذي يوظِّفه الغزالي لمعالجة موضوع المقاصد ويَبرز بوضوح في كتاباته المختلفة مصطلح الأبعاد، الذي يعني امتدادات الأشياء في اتساعها وعمقها وعلوّ شأنها. وهو يقصد بالأبعاد القرآنية القضايا الكبرى ذات الأهمية القصوى التي تتمحور حولها أساسيات الوجود الإنساني. وقد ورد هذا المصطلح أيضًا في كتاباته العديدة[٢].

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، محمد. ص٣٠، ٣٩، ٤٥، ٤١، ٧١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه. ص٣٥، ٤١، ٤٤، ٤٥.

د- مصطلحات أخرى:

من مثل: الأهداف والمرامي والمغازي والغايات والآفاق، وهي ألفاظ وكلمات ترد في كتابات الغزالي ليعبر بها عن المحاور والمقاصد القرآنية، لكنها لا ترقى في نظرنا إلى درجة المصطلح، بل هي مجموعة من المترادفات كثيرًا ما يدعم بها الغزالي أفكاره. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في كثيرٍ من الأحيان لا يكتفي باستخدام مصطلح واحد، بل يقرنه بالمصطلحات السابقة كالمحاور والمقاصد والأبعاد، كأن يقول -مثلًا-: مدركًا لأبعاده ومقاصده[1]، من باب التأكيد على أهمية الدرس المقاصدي.

(١) ينظر: المصدر نفسه. ص٤١.

ثالثًا: المقاصد القرآنية مطلب شرعي وضرورة وحضارية:

إنّ المتتبع لكتابات الغزالي لا يفوته أن يلاحظ بكلّ سهولة هذا الاهتمام الملحوظ الذي يُوليه لمقاصد القرآن، والآمال الكبيرة التي يعلقها عليه، والمشاريع المستقبلية التي يرجو أن يسهم علم مقاصد القرآن في إنجاحها وتنفيس الضغط عن الأمة التي تكاد تذهب بها رياح الأزمات: «لا بد من قراءة القرآن الكريم قراءة متدبّرة واعية تفهم الجملة فهمًا دقيقًا، ويبذل كلّ امرئ ما يستطيع لوعي معناها، وإدراك مقاصدها، فإن عزَّ عليه، سأل أهل الذكر»[(١)].

ولعل هذا الاهتمام الواضح بالمقاصد يعود في جزءٍ كبيرٍ منه إلى الأزمة الحضارية الخانقة التي تعيشها الأمة منذ قرون، والتي استدعت العلماء والمجدِّدين منذ بزوغ فجر النهضة أن يبحثوا لها عن مخرج يجنِّب الأمة مزيدًا من الخسائر، وتتدارك به ما فاتها من اكتساب فقه النهوض والتغيير الحضاري، وتتمكن من التفاعل الحيّ مع الواقع العالمي، ومن مدافعة محاولات الاحتواء والإلغاء.

إنّ لجوء رواد النهضة والتجديد الحضاري الأوائل من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا[(٢)] ومَن جاء بعدهم إلى القرآن

(١) المصدر نفسه. ص٢٦.

(٢) ينظر: الوحي المحمدي، رضا، محمد رشيد. ص١٦٦ وما بعدها.

للبحث عن أسباب السقوط والتخلّف، وإيجاد إجابات شافية لأسئلة النهضة، والعثور على حلول مناسبة لمشكلات العصر التي تعصف بالوجود الإسلامي وسط تيارات الحضارة الغربية العاتية، هو الذي أنار السبيل نحو المقاصد القرآنية التي طرحت نفسها بقوة في المشهد الفكري المعاصر، باعتبارها أضمن مخرج لأزمة الأمة التي اتضح لمعظم الدارسين الإسلاميين المعاصرين أنه لا يمكن مواجهتها إلا بفهم الكليات والأبعاد والمقاصد الكبرى للقرآن الكريم[(١)].

وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن سرّ غياب هذا الاهتمام بمقاصد القرآن لدى علمائنا القدامى، والراجح عندنا أنّ السبب في ذلك يعود إلى أن الأمة آنذاك كانت تملك إمكانات حضارية قوية تضمن لها سلامة دينها وموارد رزقها وأمن أوطانها، وأنها كانت قادرة على صدّ معظم التحديات الخارجية التي استهدفتها، كما نجحت إلى حدّ بعيد في امتصاص كثيرٍ من الضربات التي وجَّهتها لها القوى المعادية، وتجاوز الضغوط التي تعرضت لها، ولم تقع في أزمة حضارية مماثلة لأزمتنا اليوم لتضطر إلى استنفار كلّ وسائل دفاعها.

وبعد استقرائنا للجهود والإسهامات العلمية التي قدّمها أعلام الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر حول أهمية المقاصد القرآنية ودورها في حلّ

(١) ينظر: مقاصد المقاصد، الريسوني، أحمد. بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٣م، ص٩.

مشكلات الأمة الحضارية، انتهينا إلى أنّ مقاربات الغزالي لهذه المقاصد ارتكزت على دعامتين أساسيتين هما: أن الوعي المقاصدي مطلب شرعي تفرضه طبيعة الرسالة الخاتمة التي تتجاوز نصوصها المعصومة حدود الزمان والمكان لتستوعب كلّ مستجدات العصور، وضرورة حضارية تفرضها طبيعة الإسلام التحررية والتقدمية التي ترفض السكون والسلبية، وتحارب الجمود وتدعو إلى بناء الحضارة والانفتاح على الكسب الإنساني. وسنحاول فيما يلي تفصيل ذلك:

١ - الكشف عن المقاصد القرآنية مطلب شرعي:

إنّ الاجتهادات الإسلامية المعاصرة في مجال التأكيد على أهمية المقاصد القرآنية تكاد تُجمع على أنّ هذا الأمر تقتضيه طبيعة الدِّين والرسالة الخاتمة التي تطرح نفسها وحيًا معصومًا يقدِّم للإنسان في كلّ زمان ومكان منظومة متكاملة من القِيَم والتشريعات التي تستوعب كلّ ما يطرأ على حياة البشر من تغيّرات، وما يعتريها من حاجات متجدّدة، وتكفل له الغطاء الشرعي لكلّ مساعيه شرط أن يبذل الجهد في استنطاقها، والوعي بكلياتها التي تنتظم كلّ جوانب حياته إلى يوم الدِّين، وأن يلتزم بالمنهج الأمثل في مقاربة هذه المقاصد.

والغزالي ينطلق من هذه الدعامة لإثبات أن الدرس المقاصدي مطلب شرعي من كون النصّ القرآني نصًّا مفتوحًا، متجدّد العطاء، قادرًا على تقديم

رؤية قرآنية شاملة تعكس الأبعاد الكبرى للرسالة الإسلامية: «كلّ جيل استطاع من خلال كسبه العلمي أن يقرأ هذه الآيات فيدرك فيها أبعادًا لم يدركها مَنْ سبقه... ونخشى إذا قلنا مع مَنْ يقول بأن القرآن أُدرِكَ كلّه في جيل معيَّن فقط، أن نحاصر القرآن، ونلغي خلوده»[(١)]، وأنّ الفهم الصحيح والعميق لأسرار القرآن يتوقف إلى حدّ بعيد على هذا الإدراك المقاصدي، وأنه لا يمكن فهم الدين فهمًا صحيحًا بعيدًا عنه؛ لأن القراءات الجزئية والحرفية للنصّ القرآني عجزت عبر تاريخنا الطويل عن الكشف عن هذه الأبعاد والكليات والغايات القرآنية.

وعلى هذا الأساس فإنّ الغزالي في إطار تأكيده على المقاربات المقاصدية للقرآن نجده يقوم بمراجعة شاملة للتراث الإسلامي بمدارسه المختلفة، آخذًا على أصحابها اعتمادهم للقراءة الجزئية الموضعية للقرآن الكريم، واستغراقهم في إيضاح جانب منه، وإهمال جوانب كثيرة لها أهميتها ودورها الحاسم في ترشيد سَيْر الأمة، مبيِّنا أنّ هذه القراءة الجزئية التبعيضية للقرآن الكريم -بعيدًا عن الرؤية الشاملة لكلياته- قد جعلت الجسم الإسلامي عاجزًا عن الحركة الإيجابية بسبب الشّلل الذي أصاب بعض أطرافه نتيجة ضمورها وإقصائها من دائرة الاهتمام: «والنظرة الجزئية عندما سادت الفكر الإسلامي نشأ عنها ما

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مصدر سابق، ص٢٠٦.

يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه، أو في بعض أجهزته مع بقاء أجهزة أخرى حية... إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر قد جمَّد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء»[(١)].

كما أخذ عليهم أيضًا انشغالهم الكبير بالجانب الشكلي لقراءة القرآن وضبط حروفه ومخارجه مع الغفلة عن معانيه وأبعاده بطريقة جعلَتْ حُسن التلاوة هدفًا في حدّ ذاته، وليست وسيلة يعْبُرُ بها القارئ إلى ما يزخر به القرآن من المعاني والأسرار والحِكَم والغايات التي تضمنتها آياته: «وجدنا الأمة الإسلامية عندما هجرت كتابها، أو على الأقلّ أخذت تقرؤه على أنه تراتيل دينية، فإنها فقدَتْ صلتها بالكون... وكنا نعتبر الخطأ الكبير فقط ألَّا يَمُدَّ القارئ المدّ اللازم خمس أو ست حركات، أو لا يَغُنَّ الغُنَّة، أو لا يُخفي الإخفاء، وكلّ ذلك يمكن أن يكون وسائل لحماية الأداء القرآني ليكون محلًّا للنظر والتدبر... أما وَعْي المعاني، وإدراك الأحكام، من خلال تشرُّب معاني القرآن، فقد اختفى من نفوسنا»[(٢)].

(١) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص٧٢.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص٢٩.

وعلى هذا الأساس دعا الغزالي صراحة إلى العودة المباشرة إلى القرآن الكريم، وتجاوز كلّ هذه القراءات الجزئية[١] والشكلية والحَرفية والمذهبية[٢] التي أَسَرَت النصّ القرآني ضمن منظورها، وأصبحت لها الصدارة، واكتست طابع القداسة حتى كادت تحلّ محلّ النصّ المعصوم، وشكَّلت حاجزًا كثيفًا حالَ بين المسلمين وبين التفاعل الحيّ معه، مما أفقده القدرة على العطاء المتجدد: «فالعودة إلى النصّ تعني فيما تعني التحرّر من كلّ النصوص البشرية، والإقرار بعدم إلزاميتها وسحب القداسة عنها، دون أن يعني ذلك إسقاط أهميتها المعرفية»[٣].

ودعا إلى تبني النظرة الكلية والرؤية الشمولية للنصّ القرآني، ومحاولة فهمه في هذا الإطار الواسع الذي يعطيه أبعاده الحقيقية. ذلك أنّ العودة إلى القرآن تفتح آفاقًا واسعة للعقل الإسلامي ليمارس نشاطه الطبيعي بالاحتكاك المباشر بالنصوص المعصومة، وهي نَقْلة نوعية في التفكير ترفع عن كاهل العقل الإسلامي الضغط الذي فرَضته عليه التراكمات التراثية، وتربطه بالنصّ القرآني ليستلهم منه معانِيَ جديدة دون الحاجة للخضوع لوساطات السابقين.

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص٧٥، ٧٦.

(٢) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، ص٦٣.

(٣) إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، عمارة، محمد وآخرون. مالطة: مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ص٢١٢.

٢- الكشف عن المقاصد القرآنية ضرورة حضارية:

ومثلما عدَّ الغزالي الكشف عن المقاصد القرآنية مطلبًا شرعيًّا، عدَّها ضرورة حضارية أيضًا، ونقصد بذلك أن إدراك المقاصد القرآنية شرط أساسي لبناء الحضارة وتحقيق العمران البشري. ولعلّ من أقوى الدوافع التي جعلت الغزالي يطرح هذه القضية بإلحاح هي الأزمة الحضارية التي تعتصر المسلمين، وتكرّس تخلفهم؛ فالتحقق بالرؤية القرآنية الشاملة يؤدي -عنده- حتمًا إلى بناء الحضارة؛ لأنها تحمل بذورها في مضامينها: «القرآن كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارة .. هذه قدرته .. وهذه طاقته»[(١)]. فالفعل الحضاري في القرآن الكريم مرتبط بالمقاربة المقاصدية: «لا بد للإنسان من التدبّر في القرآن، والتعرّف على سنن الكون وقوانينه التي لا يتحقق بدون إدراكها تعميرُ الأرض»[(٢)].

إنّ الوعي بالأبعاد الكبرى والمقاصد الكلية يدفعان المسلم إلى التخلص من عقيدة الجبر التي تعطّل السببية وتطفئ الفعالية وتجعله مشلولًا من الناحية الحضارية غير قادر على صنع التاريخ: «للأسف، وُجِد في الأمة الإسلامية خطأ قديم، ولا تزال بعض آثاره باقية إلى اليوم، وهو شيوع فلسفة الجبر، وهي فلسفة

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مرجع سابق، ص٤٧.

عطلت قانون السببية تعطيلًا كاملًا؛ لقد عطّلته في السنن الكونية فتخلَّفْنا في عمارة الأرض، وعطّلته في السنن النفسية فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية، وهذا من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية»[(١)].

ولمقاومة الآثار الضارة لهذه الفلسفة وجدنا الغزالي يتوقّف كثيرًا عند الثقافة السّننية، فالقرآن الكريم عنده مدرسة كبيرة للسنن الإلهية التي تتحكم في بناء الحضارات وسقوطها، لكن علماء الأمة لم يهتموا بها الاهتمام اللائق الذي يجعل منها منارة اهتداء يقيس بها المسلمون مستويات صعودهم وهبوطهم، ومؤشرات على تقدمهم أو تراجعهم، وبفقدان هذه الثقافة لم تشعر الأمة إلا وهي واقعة بين أنياب أعدائها: «نحن ما فهمنا سنن الله الكونية في الأرض حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة، وهو المنطق القرآني الذي عُرِفَ من كتاب ربنا ومن تطبيقات النُّبُوّة، ولا أحسنَّا الاستفادة من سنن الله في الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضِّها وقضيضها في قبضة استعمار عالمي لا يرحم»[(٢)].

ونظرًا للأهمية القصوى التي تكتسيها قضية السنن الاجتماعية عنده وجدناه يخصّص المحور الثالث من كتابه: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) للقصص

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مرجع سابق، ص٥١.

(٢) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مرجع سابق، ص٥٢.

القرآني، والذي يصوّر المسيرة التاريخية للبشرية عبر العصور، ويرسم خطًّا بيانيًّا لقيام حضاراتها وسقوطها، والسنن التي تَحَكَّمَت فيها، داعيًا بصراحة وإلحاح إلى ضرورة رصدها؛ تمهيدًا لإدراكها ومِن ثَمّ تسخيرها؛ لأنه يعتقد أنها العامل الأساس لأيّ إقلاع حضاري للعالم الإسلامي.

وفي إطار تأكيد الغزالي على أن إدراك المقاصد القرآنية ضرورة حضارية، يدعو أيضًا إلى الاهتمام بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: كعلم التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية[(١)]، وغيرها من العلوم التي قصَّر أسلافنا في تنميتها وتطويرها، والاستفادة مما جاء في القرآن بشأنها؛ وذلك نظرًا لأهميتها القصوى في بناء الإنسان وتشكيل عقله وصنع قناعاته، وأثرها في توجيه المجتمع وترشيد مسيرته وإفادته من التجارب في البناء الحضاري.

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، مرجع سابق، ص٤٤ - ٤٥، ص١٠٢ - ١٠٣.

الخاتمة ونتائج الدراسة:

ونخلص في خاتمة هذه الدراسة إلى أنّ المقاصد القرآنية مجال مهمّ من مجالات العلوم الإسلامية التي نشأت في عهد مبكّر من حياة المجتمع الإسلامي لكنها ظلّت في حالة جنينية لقرون عديدة، إلى أن وَجَدت الأمة الإسلامية نفسها وجهًا لوجه مع الحضارة الغربية التي انقضَّت عليها انقضاض الوحش الكاسر على فريسته فأثخنتها بالجراح؛ ولا زالت تكيل لها الضربات طمعًا في الإجهاز عليها أو احتوائها، الأمر الذي استدعى استنفار القوى المفكرة في الأمة لتفعيل العقيدة في النفوس، وتوثيق ارتباط المسلمين بدينهم، وتعزيز القيم الإسلامية لديهم؛ لإعادة الثقة لأنفسهم التي اهتزت تحت وطأة الضغط الغربي وامتلاك القدرة على مقاومة مدِّه العاتي.

والشيخ محمد الغزالي واحد من علماء المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة بيان هذه المقاصد لتصحيح أخطاء الأمّة وترشيد مسيرتها وإعادة ربطها بمصادر الهداية الأصلية.

وقد توصَّلْنا إلى جملة من النتائج، نوردها فيما يأتي:

١- أن المقاصد القرآنية علم جليل يهدف إلى رصد الغايات الكبرى والقضايا الأساسية التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته لجَعْلِها منطلقًا

نحو تفعيل الإسلام بكلّ قيمه وتعاليمه في نفوس أبنائه لاستئناف مسيرةٍ حضارية جديدة.

٢- أنّ المقاصد القرآنية كانت معروفة لدى السلف من الصحابة والتابعين، كما أشار إليها بعض علمائنا القُدامى إشارات سريعة، لكنها لم تحظَ بالاهتمام الكبير والعناية الفائقة إلا في عصرنا الذي شهدت فيه الأمة صراعًا حضاريًّا عنيفًا استهدف هويتها وكيانها التاريخي بالمسخ والمحو.

٣- أنّ محمد الغزالي واحد من العلماء المسلمين الذين أسهموا في إثراء هذا العلم وتجلية أبعاده، وترسيخ أركانه؛ لاعتقاده أنّ الأخذ به هو السبيل الأمثل الذي يعيد ربط المسلمين بكتاب ربهم ربطًا يعينهم على استلهام قِيَمه وتعاليمه بما يعيد إليهم توازنهم النفسي ويؤهلهم للتفاعل الحيّ مع حركة العالم النشيطة من موقع قويّ.

٤- أنّ محمد الغزالي يعتقد أنّ السقوط الحضاري الذي عصف بالعالم الإسلامي ناتج عن القراءة التجزيئية للقرآن الكريم وغياب النظرة الشمولية التي تستوعب جميع مجالات الحياة في إطار مقاصده الكلية، الأمر الذي أسفر عن تضخُّم بعض الجوانب في الحياة الإسلامية وضمور بعضها الآخر مما أوقع الأمة في شلل مُميت عطَّل فيها كلّ طاقاتها الحيّة.

٥- أنه وظَّف للتعبير عن المقاصد القرآنية جملة من المصطلحات، يأتي على رأسها مصطلح المحاور الذي عنون به كتابه: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم)، يليه مصطلح المقاصد الذي شاع وانتشر حتى أصبح عَلَمًا على هذا النوع من الدراسات، ثم مصطلح الأبعاد، ثم مجموعة من المترادفات مثل الغايات والمغازي والمرامي والآفاق وغيرها.

٦- أنه يرى أنّ الكشف عن المقاصد القرآنية فريضة شرعية تقتضيها طبيعة الدين والرسالة الخاتمة التي تطرح نفسها وحيًا معصومًا يقدّم للإنسان في كلّ زمان ومكان منظومة متكاملة من القيم والتشريعات التي تستوعب كلّ ما يطرأ على حياة البشر من تغيرات، وما يعتريها من حاجات متجددة.

٧- أنّ الكشف عن المقاصد القرآنية عنده ضرورة حضارية وشرط أساسي لتحقيق العمران البشري؛ لأن الوعي بها يدفع المسلم إلى التخلّص من عقيدة الجبر التي تعطِّل السببية وتطفئ الفعالية وتجعله مشلولًا من الناحية الحضارية غير قادر على صنع التاريخ.

١ - قائمة المصادر والمراجع:

١- جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن الكريم، بودوخة، مسعود. المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، فاس، المغرب، (جمادى الأولى ١٤٣٢هـ-أبريل ٢٠١١م.

٢- الفوز الكبير في أصول التفسير، الدهلوي، شاه وليّ الله أحمد بن عبد الحليم. تعريب: سليمان الندوي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣- الوحي المحمدي، رضا، محمد رشيد. الجزائر: دار الكتب، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٤- مقاصد المقاصد، الريسوني، أحمد. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٣م.

٥- البحث في مقاصد الشريعة نشأته وتطوره ومستقبله، الريسوني، أحمد. ندوة مقاصد الشريعة عند المذاهب الإسلامية، لندن، ٢٠٠٥م.

٦- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.

٧- القرآن إعجاز تشريعي متجدد، الزين، محمود أحمد. دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية، دار إحياء التراث، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٨- الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، القاهرة: دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٩- الاعتصام. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. القاهرة: مكتبة التوحيد. د.ت.

١٠- إلى القرآن الكريم. شلتوت، محمود. بيروت: دار الشروق. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١١- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٢- مراجعات في تطور المنهج المقاصدي عند المعاصرين، العلواني، زينب. فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. الولايات المتحدة الأمريكية.

١٣- إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، عمارة، محمد وآخرون. مالطة: مركز دراسات العالم الإسلامي، ط ١، ١٩٩١م.

١٤- كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي، محمد. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، ٢٠٠٥م.

١٥- جواهر القرآن. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ١٩٨١م.

١٦- كيف نتعامل مع القرآن الكريم. القرضاوي، يوسف. جامعة قطر: مركز بحوث السنة والسيرة. ١٩٩٦م.

١٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، محمد بن أبي بكر. بيروت: دار الجيل.

١٨- في ظلال القرآن. قطب، سيد. بيروت: دار الشروق. ط٧. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٩- الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم، المنتار، محمد. المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، ٢٠١٣م.

٢٠- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم. بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ

٢١- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النورسي، بديع الزمان سعيد. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: دار سوزلر، ١٩٩٤م.

٢- الدوريات:

١- حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية. جامعة قطر. ع٢١. ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢- مجلة إسلامية المعرفة، السنة ١٠، عدد ٣٩، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣- مجلة إسلامية المعرفة. السنة ١٢. عدد ٤٨. ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٤- مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، عدد ٢٩، ٢٠١١م.

٥- مجلة إسلامية المعرفة. س ٢٣. ع ٨٩. صيف ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

٣- المواقع الإلكترونية:

a. http://vb.tafsir.net/tafsir27010/#.WG-St32OqM